استعارات الطبيعة في الشعر العربي

الاندلسي(ابن حزم الاندلسي ٤٥٦هـ انموذجا)

.....

د. ياسر رشيد حمد البياتي

جامعة تكريت / كلية الآداب

المقدمة

الحمد لله حقَّ حمده والصلاة والسلام على سيدنا محمد (وعلى اله وصحبه وسلم) وبعد:

كانت الطبيعة ومازالت هي الرافد الذي ينهل منه الشعراء ليعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم فالشاعر يلاحظ كل ما حوله من جمال وطبيعة ساحرة لينعكس ذلك السحر والجمال على شعره فتغدو الكلمات موسيقى عميقة وألحانا جميلة تتغنى وتتغزل بروعة المكان ، فالشاعر العربي فنان مبدع يصور ويرسم ما يرى على شكل كلمات وأحاسيس ، وقد اجمع النقاد في العصر الحديث على تسمية هذا النوع من الشعر بـ(شعر الطبيعة) ، استطاع الشعراء العرب أن يقدموا لمجتمعاتهم صورةً عجز عنها أهل السياسة والتاريخ والاقتصاد؛ ويعود ذلك إلى امتلاكهم الحس الفني والذوق الرفيع والإحساس المرهف مع معايشة الأحداث بكل تفاصيلها ومعطياتها ومكوناتها وعناصرها ، وحاولوا أن يعطوا لكل جزء استحقاقه من خلال الرؤيا الإنسانية العميقة والمتصلة بالروح والمادة في الآن نفسه ، وكان للطبيعة حضور متميز بينهم وربما اختلفوا حسب الأجواء التي عاشوها إلا أنها جزء لا يتجزأ من حياتهم الشعرية ، ونستطيع أن نفهم عبر الاطلاع على أشعارهم ودور الطبيعة وأثرها في الحس الحضاري والعمق الإبداعي في المجتمعات التي عايشوها ، وقد كان لهذا الدور الذي تلعبه الطبيعة في تحديد أفكار وتوجهات الشعراء أو على الأقل الكيفية التي يستخدمون الطبيعة في نقل أحاسيسهم وأفكارهم وحتى عقائدهم، سبب في اختيارنا دراسة (استعارات الطبيعة في الشعر العربي الاندلسي ــ ابن حزم الاندلسي ٤٥٦هـ انموذجا) والذي وقع على أثر الطبيعة في شعره؛ وذلك لنرى كيف استنطق ابن حزم عناصر الطبيعة وهو الفقيه والقاضي وصاحب النظرة المتميزة للعقائد والأصول التي كانت سائدة على عصره، وكيف وظفها في شعره . وهذا تطلب منا إن نعتمد خطة بحث تتكون من مبحثين توزع المبحث الأول على ثلاثة مطالب أخذ المطلب الأول عنوان (الطبيعة وأثرها في الشعر العربي) والمطلب الثاني أخذ عنوان (الطبيعة في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي) و أما المطلب الثالث فكان عنوانه (الطبيعة في الشعر الأندلسي) . وجاء المبحث الثاني ، وتوزع هو الآخر على مطلبين ، ركز المطلب الأول على (حياة ابن حزم الأندلسي وسيرته الشخصية والأدبية) ، وأما المطلب الثاني فكان تحت عنوان (صور من مفردات الطبيعة في شعر ابن حزم) واعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع من أهمها دواوين فحول الشعراء وكتابات النقاد والمهتمين بالشعر والشعراء. . وما التوفيق إلا من عند الله العلي العظيم .

المبحث الأول

نبذة مختصرة عن الطبيعة منذ العصر الجاهلي حتى العصر الأندلسي

المطلب الأول

الطبيعة و أثرها في الشعر العربي

كانت الطبيعة ومازالت مصدر الهامٍ لأصحاب الفن بشكل عام والشعراء على وجه الخصوص ؛ لان للطبيعة تأثيرها المباشر في نفس الشاعر لذلك نجده تحدث عن جمالها ومعالمها وجداولها في معظم اغراضه الشعرية من غزل ومديح وهجاء وغيرها من الأغراض الاخرى، ولعل وصف الشاعر الجاهلي كان وافياً وذلك في اعتماده على قوة الخيال فعمد الى تصوير كل ما يشاهده حوله في الطبيعة الحية وكذلك الصامتة فنراه يصف الناقة والحمر الوحشية والخيول بكل صفاتها، وقام بوصف الصخور والسهول والجبال وكذلك الأمطار والسماء بصحوها وغيومها ومن الشعراء الذين تفننوا في وصف الطبيعة امرؤ القيس وزهير بن ابي سلمى وطرفة بن العبد وغيرهم [١]. فهذا امرؤ القيس قد صور لنا مشهد السرعة عند فرسه وجعلنا امام صورة تبدو وكأنها واقعية ، معتمداً على انفعالات حسية عالية ، وذلك بقوله (الطويل) : [٢]

مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمود صخرٍ حطَّه السيل من علِ

إلا أن وصفه هذا بقي وصفاً حسياً مقتصراً على الصور دون أن نجده يذوب في وصفه وتمتزج أحاسيسه بكل ما يرى ونكاد لا نجد هنا للطبيعة تأثيراً واضحاً على إحساس الشاعر ووجدانه [٣] ، والبيئة في عصرها الجاهلي كانت غنية بمظاهرها الطبيعية وقد ألهمت كثيراً من الشعراء بسحرها وأسلوبها وجمالها حتى صارت مصدراً أساسا استقى وأفاد منه الشاعر الجاهلي كثيرا من فنه وابداعه، ومن ذلك قول امرؤ القيس أيضاً في وصف الأطلال (الطويل) [٣] :

لمن طللٌ ابصرتُهُ فشجاني كخط زبورٍ في عسيب يمانِ

ونجده في موضع آخر يشبه الظعن والسفن الراحلة قائلاً (الطويل) [٤]

بعينيَّ ظعن الحي لما تحملوا لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا

فشبهتهم في الآل لما تكمشوا حدائق دوم أو سفينا مقيرا

ويصف المنخل اليشكري امرأة وصفاً جميلاً مستوحياً صوره كلها من الطبيعة الحية، من مطر، وطيور وغيرها قائلاً (مجزوء الكامل) [٥] :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليومِ المطيرِ

فدفعتها فتدافعت مشي القطاة الى الغديرِ

ولثمتها فتنفَّست كتنفسِ الظبيِّ البهيرِ

وهذا أوس بن حجر قال واصفاً السحاب (الطويل)[٦] :

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

و الأعشى قال وهو يصف الرياض (البسيط) [٧] :

ما روضةً من رياض الحزن مُعشبةً خضراء جادَ عليها مسبلٌ هطل

يضاحك الشمسِ منها كوكُب شرقٍ مؤزّر بعميمِ النبت مكتهلِ

هنا نجد في قول الشاعرين أوس بن حجر والأعشى أن الطبيعة أرسلت الروح والحياة في كل كلمة نظمها وقالها الشاعران ، وكونت في شعرهما صوراً ممزوجة بالحياة .

وهذا عبيد بن الابرص يصف الحوت في تشبيه لمهارته في السباحة (الوافر) [٨] :

لساني بالنثير وبالقـــوافي وبالأسجاع أمهر في الغواصِ

من الحوت الذي في لج بحر يجيد السبح في لجج المغاصِ

وعلى ما يبدو أن امكانية الشاعر الجاهلي عالية جداً في تطويع مظاهر الطبيعة وليس لها حدود ، فينتج صورا بديعة وفنية أبدع في رسمها الشاعر، وأضفى عليها خبراته المتراكمة، فالشاعر استوعب الطبيعة الجاهلية على اختلاف مظاهرها في فنه الشعري بما فيها من دلالات ورموز دينية واعتقادية مختلفة والتي كان لديها ارتباطها الوثيق بالإنسان القديم [٩].

المطلب الثاني

الطبيعة في شعر صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي

لعل تنقل العرب بين حياة الصحراء وحياة الحضارة الجديدة أبقى أذهان الشعراء عالقة في الصحراء وذكرياتها وخيامها ونوقها وخيولها، إذ بقي كثير من الشعراء يفضلون الصحراء بحياتها الجميلة على حياة المدن وما فيها [١٠]. فهذا الشاعر ذو الرمة والذي يُعد من أكثر الشعراء الذين عشقوا الصحراء بما فيها ، ومن ذلك قوله في وصف حيوان في الصحراء بضبيةٍ وابنها مضفياً عليهما عواطف الإنسان وذلك بقوله (الطويل) [١١] :

إذا استودعَته صفصفاً او صريحةً تنحت ونصت جيدها بالمناظر

حذارا على وسنان يصرعه الكرى بكل مقيل عن ضعاف فواتر

وتهجره إلا اختلاسات نهارها وكم من محب رهبة العين هاجر

واهتم الشعراء العباسيون خصيصاً بوصف الطبيعة فقد كانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعر الشاعر وعواطفه مما جعله يكلف بها كلفاً شديداً فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة معيشة قوية حارة يرى فيها الطبيعة من حوله وقد تحولت وجوها فاتنة ناطقة وكل شيء فيها يغريه بالنظر واللمس والشم[١٢].

ومن أشهر شعراء العصر العباسي الذين خاضوا في بحر وصف الطبيعة ابو تمام إذ يعد شاعر المعاني والتجديد ومن احسن ما صوره في الوصف والتعبير وأحاسيس الطير ، ومن ذلك مقارنته بين معاناته من حزنٍ وهم وبين ما لاحظه على قمري وقمرية من تبادل الحب والهوى والسعادة وذلك بقوله (الكامل):[١٣]

غنَّى فشاقك طائرٌ غريدُ لما ترنم والغصون تميدُ

ساقٌ على ساقٍ دعا قمريةً فدعتْ تقاسمه الهوى وتصيدُ

حتى قال:

يا طائران تمتعا هُنـيّتما وعمّا الصياح فإنني مجهودُ

ثم البحتري الذي تنوعت موضوعاته الشعرية فقد برع في وصف الطبيعة التي عايشها ومن جميل شعره ما قاله واصفاً الربيع (الطويل) [١٤]:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النوروز في غلس الدجى أوائل وردٍ كُنَّ بالأمس نوما

ونجد عند الشاعر ابن الرومي ومن أجمل شعره ذلك الذي صور فيه مناظر الطبيعة قائلاً (الخفيف)[١٥]:

ورياضٍ تخايل الأرض فيها خُيلاء الفتاة في الأبراد

ذات وشى تناسجته سوارٍ لبقات بحوكهِ وغوادِ

فالأرض تتراءى له كأنها فتاة حسناء تختال في ورود الربيع البهيجة ووشيها الذي نسجته السحب نسجا بديعا وهي تثني على السماء ثناء عطراً.

كما وصف ابن الرومي الربيع أيضاً وذلك بقوله (الكامل) [١٦] :

ضحك الربيع الى بكا الديم وغدا يسوى النبت بالقمم

من بين أخضر لابسٍ كمما خضرا وازهر غير ذي كمم

كذلك نجد الصنوبري الذي أجاد وأبدع في وصف الطبيعة بقوله (الكامل) [١٧]:

يا ريم قومي الآن ويحك فانظري ما للربى قد أظهرت إعـجابها
كانت محاسن وجهها محجوبة فالآن قد كشف الربيع حجابها
ورد بدا يحكي الخدود ونرجس يحكي العيون إذا رأت أحبابها

فهو يوقظ صاحبته لترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها فبدت خدودها وعيونها، كما قال ايضا (البسيط) [١٨]:

ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا اتى الربيع أتـاك النور والـنـور
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤةٌ والنبت فـيـروزجٌ والـمـاء بـلـور

فالربيع كأنه دكانٌ مليء بالجواهر والدنيا مليئة بالبشر والسرور والطيور تغني وتشدو بصوتها الساحر، ثم نجد الشاعر ابن المعتز ومن أجمل ما أنشده في الوصف قوله في وصف الهلال (الكامل) :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبرِ

وقوله أيضا واصفا قصور ورياض المعتضد الطويل [١٩]:

وأنهار ماءٍ كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر
جنان وأشجار تلاقت غصونها فأورقن بالأثمار والـورق الخضر
ترى الطير في أغصانهن هواتفا تـنـقـل من وكـر لهـن إلـى وكـر

كما ان الوصف في هذا العصر قد أصبح فناً له استقلاليته وذلك بفضل الطبيعة الغنية بالجمال فقد كان الشاعر العباسي يصف كل ما يقع تحت ناظره، وقد كان وصفه دقيقا واقعيا يصور فيه المشهد الموصوف تصويرا يمازج الرسم أحيانا وكأنه بدقته قد أسهم في صنع ذلك الموصوف.

المطلب الثالث

الطبيعة في الشعر الأندلسي

لعلنا نجد للطبيعة صداها الواسع في حياة العربي في المشرق والمغرب فهي مؤثرة في ثقافته وفكره ، وللأندلس طبيعة وافرة الجمال كل ذلك له أثر واضح في الشعر ، وهذا ولاشك ما جعل الشعراء الأندلسيين يتحسسون الطبيعة الساحرة الحية الجميلة التي عاشوا فيها، من الجبال والسهول والانهار والبحار والمحيطات التي تحيط بها ، والاشجار والازهار والغابات والطيور وكل شيء فيها من معالم الطبيعة الخلابة التي دعت الشاعر الاندلسي الى وصفها[٢٠]، ولعل ذلك أحد أسباب تفوق الاندلسيين في شعر الطبيعة على المشارقة لأن الطبيعة في البيئتين تبقى مختلفة ، ولعلنا نجد أجمل ما قيل في وصف الاندلس قول ابن خفاجة (البسيط)[٢١] :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار

ماجنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت اختار

لا تختشوا بعد ذا ان تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

وهذا عبد الرحمن الاوسط قد قرن وصف الطبيعة بوصف حبيبته قائلاً (الطويل)[٢٢]:

ترى الورد فوق الياسمين بخدها كما فوف الروض المنور بالزهر

فلو أنني ملكت قلبي ونـــــاظري نظمتهما منها على الجيـد والنحر

ثم يخاطبها مستعيناً بجمال الطبيعة الخلاب من نسيمٍ عليلٍ وروائح طيبة زكية وغيرها من الامور الجمالية التي تغري محبوبته بأن تُقبل اليه قائلاً (مجزوء الرمل)[٢٣]:

ما تراه في اصطبـاح وعـقود القـطر تـنثر

ونسيم الروض يختا ...ل على مسك وعــنـبر

كـلـمـا حـاول سبـقـــا فهو في الريحان يعثر

لاتكن مهمالة واس .....بق فما في البـطء تعـذر

فهو في كل كلمة في شعره حاول ان يصف بألفاظه العذبة وتعابيره الدقيقة الطبيعة التي حوله راصداً حركات المنظر والاغصان وانسياب المياه العذبة وما الى ذلك، فالشاعر هنا استطاع ان يختصر المعاني الكثيرة التي اراد ان يقولها في هذه الأبيات فسحر الطبيعة وأثرها واضحيين في شعره فوظف ذلك الجمال الخلاب للطبيعة وظفه غزلاً تغزل بمحبوبته فيها .

المبحث الثاني
الطبيعة في شعر ابن حزم الأندلسي

المطلب الأول
حياة ابن حزم الاندلسي

((هو الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد ، الفقيه الحافظ ، المتكلم ، الأديب ، الوزير، الظاهري ، صاحب التصانيف))[٢٤]. ويكنى الأندلسي القرطبي اليزيدي[٢٥]. نسبه يتصل بالأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب(رضي الله عنه) المعروف بيزيد الخير، نائب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)على دمشق[٢٦]. و((كان جده خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحابة ملك الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل))[٢٧].

أما عن ولادته ووفاته فقد ولد في سنة اربع وثمانين وثلاث مئة بقرطبة[٢٨]. وقيل انه توفي عشية يوم الاحد لليلتين بقيتنا من شعبان سنة ست وخمسون واربع مائة وذلك بحسب ما افادت به بعض المصادر[٢٩].

ولقد ((نشأ في تنعم ورفاهية ورزق بذكاء مفرط وذهنٍ سيالٍ وكتبٍ نفيسة كثيرة))[٣٠]. ((وكان والده من كبراء أهل قرطبة عمل الوزارة في الدولة العامرية ، وكذلك وزر أبو محمد في شبيبته)) [٣١] ، و((كان قد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر وفي المنطق وأجزاء الفلسفة فأثَّرت فيه تأثيراً ليته سلم من ذلك)) [٣٢]، وقد ((قيل: إنه تفقه أولا للشافعي ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليةً وخفية والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث والقول بالبراءة الأصيلة واستصحاب الحال وصنف في ذلك كتباً كثيرة وناظر عليه وبسط لسانه له وقد انتقد بشدة الآراء الفقهية والعقائدية التي كانت سائدة على عصره فكان جزاؤه من جنس فعله))[٣٣]. بحيث ((إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها ونفروا منها وأحرقت في وقت واعتنى بها آخرون من العلماء وفتشوها انتقاداً واستفادة ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجاً في الرصف بالخرز المهيمن فتارة يطربون ومرة يعجبون ومن تغرده يهزؤون))[٣٤].

أما عن سبب عكوفه لتعلم الفقه فقد رُوي انه قال ان سبب عكوف ابن حزم على العلوم الشرعية وتعلمه للفقه أنه شهد جنازة وكان قد بلغ ستا وعشرون سنة ((فدخل المسجد فجلس ولم يركع فقال له

رجل : قم فصل تحية المسجد قال : فقمت وركعت فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة ، دخلت المسجد فبادرت بالركوع فقيل لي : اجلس اجلس ليس ذا وقت صلاة وكان بعد العصر قال : فانصرفت وقد حزنت وقلت للأستاذ الذي رباني : دلني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دحون)) [٣٥] ، ((قال : فقعدته وأعلمته بما جرى فدلني على(موطأ مالك) فبدأت به عليه وتتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحوا من ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظر))[٣٦]. ثم ((قال ابن العربي: صحبت ابن حزم سبعة أعوام وسمعت منه جميع مصنفاته سوى المجلد الأخيرة من كتاب (الفصل) وهو ست مجلدات وقرأنا علية من كتاب (الإيصال) اربع مجلدات في سنة ست وخمسين وأربع مئة وهو أربعة وعشرون مجلداً ولي منه إجازة غير مرة وكان ينهض بعلوم جمة ويجيد النقل ويحسن النظم والنثر))[٣٧]. ((وفيه دين وخير ومقاصده جميلة ومصنفاته مفيدة وقد زهد في الرئاسة ولزم منزله مكبا على العلم))[٣٨].

المطلب الثاني

صورة من مفردات الطبيعة في شعر ابن حزم

قدم ابن حزم شعرا لم يكن يقصد به الشعر لذات الشعر بل اراد ان يوصل بعض الأفكار التي يعيش تفاعلاتها في نفسه ويرى ضرورة تبليغها الى الآخرين كونه رجل منظور اليه من الأعداء والأصدقاء لذا نظم أبياتاً من الشعر يرى إنها تكون أكثر تأثيراً من قولها كلاما معتادا ،إذن ان الشعر عنده وعند غيره أقرب الى النفوس والمسامع وأبقى وأدوم في المجالس وأفضل في الاستشهاد لذا نجد شعره أقرب الى الحكمة من إلى اللهو ، فابن حزم تحمل أعباء عصره الدينية والدنيوية فكان من فقهاء عصره ومفكريه، واختلف فيه الناس حتى تقاطعوا في الحكم عليه فمنهم من عده فقيه عصره لابل وجدوا فيه من ينطبق عليه حديثه الرسول "صلى الله عليه وسلم" ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها))[٣٩] .

ومن أجمل شعره في وصف الطبيعة الأندلسية ما نظمه بعد التنزه في بستان مع بعض إخوانه واصفاً ذلك البستان وما يزخر به من جمال طبيعي إذ قال (الطويل) [٤٠]:

ولما تروحنا بأكناف روضة ... مهدلة الأفنان في تربها الندي

وقد ضحكت أنوارها وتضوعت ... أساورها في ظلال فيء ممدد

وأبدت لنا الأطيار حسن صريفها ... فمن لان شالك شجوه ومغرد

وللماء فيما بيننا متصرف ... و للعين مرتاد هناك ولليد

ونجده قد سار على هذا النهج واصفاً الليل وظلامه الممتد ، والنجم الحائر في سمائه وهو يترقّب حبيباً وعاشقا وذلك في قوله (البسيط) : [٤١]

أقول والليل قـد أرخى أجلته وقـد تأنى بألا ينـقـضي فـوفـى

والنجم قد حار في أفق السماء فما يمضي ولا هو للتغوير منصرفا

تخاله مخطئـا او خائـفا وجلا او راقبا موعدا أو عاشـقا دنـفا

فالأغراض التي اعتمدها كانت قريبة من تخصصه الاصطلاحي الديني لذا لم يكن للطبيعة حضوراً واسعاً كبقية الشعراء في اشعاره إلا انه يبقى يتقرب الى الإفهام والإسماع بشعر يتميز بالبساطة والدقة والبلاغة ومن استعارات الطبيعة التي اخذ منها أمثالا يمكن ان نلخصها بالاتي:

أولا:- الغيث والمطر

لقد كان ابن حزم مرهف الحس رقيق المشاعر وصادقها ولا يغضب الا لله فنجده قد اهتزت فرائصه لما سمع القصيدة التي نال فيها شاعر الصليبيين من الاسلام ودولته فلم ينتظر ما يكتب يراعه بل على الفور وعلى السليقة انفجرت قريحته الشعرية ليرد ردا قاطعا على الافتراءات وسميت القصيدة بالفريدة الإسلامية في الرد على الارمنية[٤٢] . فقد استعار من مظاهر الطبيعة ليعبر عن دفائن أفكاره ومشاعره فأخذ الغيث والغيوم ليجعلها تمثل الجيوش الاسلامية الرادعة للأفرنجة الصليبيين فشبه الجيش الأسلامي بالهاملات السواحم، وذلك بقوله (الطويل) [٤٣] :

ومن دون أكتاف الحجاز جحافل كقطر الغيوث الهاملات السواحم

ومرة ثانية يجعل من الغمام وسيلة ليصل الى اهتماماته بالعلم والحديث بشكل خاص فيقول (الطويل)[٤٤]:

فعجت عليها ناقتي وهي سبسب سقته وجادته الغمام الرواجس

ويبقى مع غرضه الأساسي الاصلاحي وطلب العلم وأهمية العلماء وكيف يتجشم كل الظروف الصعبة ليزور عالما ذا علم ومعرفة وتحقيق [٤٥] ، فيذكر بيتا من القصيدة في تشرفه بزيارة أحد من اهل العلم قائلاً (الطويل)[٤٦]:

فلو كانت الدنيا دوينك لجة وفي الجو صعق دائم وحريق

لسهل ودي فيك نحوك مسلكاً ولم يتعذر لي اليك طريق

وهناك عديد من الأبيات الشعرية التي يحاول ابن حزم فيها جعل الظواهر الجوية وسيلة لنقل الصورة التي تجيش في نفسه الى سامعه وقارئه تضمنها ديوانه لم نتطرق اليها وأكتفينا بنماذج تظهر مدى تعلق الطبيعة في شعر ابن حزم .

ثانيا:- الأطلال

من الجوانب التي عاشها ابن حزم الأندلسي حرقة النفس إذا ما فارقتها وأصبحت اثراً بعيداً عن العين ، أو اطلالا لا يرى منها إلا الذكرى التي تثير الألم والحسرات فقال (الطويل) [٤٧]:

عسى يستجيب الربع اذ أنا سائل وهل ترجع اللفظ الطلول الدوارس

ويحاول ابن حزم أن يستنطق الأطلال حتى يعطي لسامعه أفكارا تؤكد أهمية الأمر الذي يجب ان يهتم الإنسان به ومدى اثره في الحياة الدنيا والآخرة ، ومن ذلك تمسك الناس بالدمع او انتظار الإطلال حتى تجيب عن التساؤلات ، كل ذلك يعده ابن حزم طلب الشيء عند غير أهله ويكمل الصورة التي أرادها من خلال الإطلال بقوله :

فكان جواب الربع اذ إنا سائل وهل تفهم القول الربوع الاخارس(٤٨)

ثالثا:- الليل والنهار والقمر والشمس والنجوم

لاشك ان صورة الليل والنهار وما يرمز لهما تعد من المؤثرات المستمرة على الشعر والشعراء اذ أنها تلهم الشاعر ليدخل وصف اغراضه الى مسامع المخاطبين فالقمر والشمس والنجوم وكلها أدوات يستخدمها الشاعر للتأثير في المتلقي وقد اختارها ابن حزم ليكوّن بها صوراً متعددة الاتجاهات فقد قال [٤٩]:

كأن بياض الرأس ينفى سواده صباح تعرى عنه ليل عكامس

ثم قال[٥٠]:

وكنا نـجوماً طالعـات مضيئـة تنير بأدناها الخطوب الحنادس

تنائين عني كالغصون واعرضت ضواحك أقمار وهـن عــوابـس

ومثل ذلك قوله ايضاً (الطويل) [٥١]:

انا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي ان مطلعي الغــرب

وقوله (الطويل) [٥٢]:

دعي دعوات اللهو قد فات وقتها كما قد افات الليل نور المشارق

ومثله كثير.

رابعا:- الصحراء والرمال والتراب

اما الصحراء وما يرافقها من تراب ورمال واسعة فقد كانت من أهم الأدوات التي اعتمدها الشعراء لإيصال ما يبغونه الى السامعين وكان لأبن حزم الاندلسي في ذلك مكان ومن الأبيات التي استشهد بها قوله(٥٣) :

وقد طالما ارتاحت وهزت غصونها بقربى احقاف الرمال الأواعس

ويرسم من البادية لوحة للبعد المادي الزمني والجغرافي فيرى ان الموت هو ايضا بادية لا يعرف اين صاحبها وأين حل وكيف حلت به الأمور فيقول (البسيط) (٥٤) :

قد كنت احسب عندي للنوى جلدا اذ عنى في بوادي شجوها العاني

وفي مواضع أخرى شبَّه خلو العلماء من مكان يستحق البكاء لان الدنيا تضيع وتفقد قيمتها اذا لم يكن فيها العالم والعلم الأساس فقال المتقارب) (٥٥) :

فألفيتها منك قفرا خـــلاء فأمسكـت عيـني عليك العبـر

ومثله قوله (الطويل) (٥٦):

وما هذه الدنيا سوى كر لحظة يعد بها الماضي وما لم يجن بعد

هي الزمن الموجود ولا شيء غيره وما مر والاتي عـديمان يـا دعــد

وقوله (الطويل) (٥٧):

لسهل ودي فيك نحوك مسلكا ولـم يتعـذر لي اليـك طـريـق

خامسا:- الحيوانات

ولا يتوقف الشعراء عند الطبيعة ومكوناتها بل يأخذوا من المخلوقات التي تعيش فيها ترميزا لأغراضهم فاستخدم ابن حزم الظباء ليعبر عن الجمال الذي كان رمزه الظباء فان هذا الرمز لا يقترب من توصيف حسن ما يرى من حب العلم وأهله فقد قال في ذلك (الطويل) (٥٨) :

ظباء اذا قيس الظباء بحسنها فان يعافير الظباء خنافس

وفي بيت اخر وجدناه أخذ من الكلب والذئب ترميزان جديدان لأغراض اخرى في وصفه لمن يريد ان يتحدى العلم وكيف يكون في الصورة التي ارادها ابن حزم اذ يراه لا يصل من أراد اسكان صوت العلم الامثل عواء الكلب أو الذئب ليخيف البدر ويبقى بالنتيجة انه كلب لا يؤثر في ذلك اطلاقا والصورة تنطق بالمعنى في قوله (مجزوء الوافر) [٥٩] :

عوى ليروع البدرا وما كلب وان نبحا

ومثله كثيرٌ في شعره.

سادسا:- البحر

وجد ابن حزم في البحر مادة غريزة للتشبيه ونقل المعنى وافراغ الأفكار ليتواصل مع المتلقي فيقول (الطويل) [٦٠]:

أمور كأمواج البحور تصادمت عليهن سبال من الليل اكبد

وهنا جمع بين الأمواج الهائجة المتصادمة والليل المظلم وبهذا أعطى من رموز الطبيعة صورة لغرض طالما اقض مضجعه الا هو أيام المحن واختلاط ضروب المآسي والهموم اذا ما المت بالإنسان فيصور ذلك بقوله (الطويل) [٦١]:

عبأت له جسرا من الحزم محكما ومصباح رأي نوره يتوقد

فأنقذت غرقاها ونورت ليلها وقربت منها كل ما كان يبعد

سابعا:- الذهب

ويأخذ من الطبيعة ما جادت على الانسان من قيمة مادية اصبحت تقاس بها النفائس فحولها الى مقياس للجوانب المعنوية فقال في ذلك [٦٢]:

فالحر كالتبر يلقى تحت منقعة طورا وطورا يرى تاجا على ملك

ذو الفضل كالتبر طورا تحت ميقعة وتارة في ذرى تاجا على ملك

واراد الشاعر ان يرفع من قيمة المرأة ويعلي من منزلتها فوصفها بأوصاف فاقت وصفه للطبيعة وذلك في قوله : [٦٣]

مرآك مرآك لا شـمـس ولا قـمـر ووردخديك لا ورد و لا زهر

في ذمة الله قلب انت ساكنه إن بنت بانَ فلا عينٌ و لا اثر

ولعنا نؤكد في خاتمة حديثنا على ان القارئ والدارس للشعر الاندلسي لابد له ان يلاحظ اثر الطبيعة فيه بصورة واضحة جلية ، وذلك لكثرة ما وصفوه من مناظرها الخلابة الجميلة واقفين على كل شيء في طبيعتها تاركين ارثاً جمالياً لمن بعدهم فالشعر والطبيعة عندهم امران متلاصقان لا يمكن ان يفترقا ابدا .

الخاتمة

من خلال تتبعنا مراحل بحثنا الموسوم (الطبيعة في الشعر العربي ابن حزم انموذجاً) وصلنا إلى مجموعة نتائج منها :

١- ان الطبيعة جزء لايتجزأ من حياة الشعراء وهي العنصر الأكثر تأثيرا في اشعارهم ، حتى عدها النقاد مصدر الشعر أو مصدر الالهام الشعري لدى الشعراء .

٢- أكد البحث على ان تاريخ الشعر العربي منذ عصر ماقبل الإسلام ، والعصور التي تلته ومن ضمنها العصر الأندلسي قد صوّر الطبيعة سواء أ كانت ترمز للقسوة والجفوة أو ترمز الى الترف والنشوة والانشراح كل حسب تطور الحياة الحضارية والمدنية .

٣- يعد العصر الأندلسي من اكثر العصور الأدبية محاكاة للطبيعة المترفة وذلك لان يعكس الأجواء التي عاشتها الأندلس للتطور الحضاري أولا وللطبيعة الخلابة التي تميزت بها فكان الشعراء أول من استلهم اجواءها وعبر عنها بقصائدهم .

٤- كانت الموهبة التي انعم الله بها على ابن حزم واضحة في اشعاره وقدراته الفنية الخاضعة للأرضية الدينية التي تربى عليها .

٥- لم يكن الشعر عند ابن حزم فيه إسفاف أو إغراق وانما كانت المعاني واضحة وقريبة وذلك بحسب حاجته الى تقريب المعاني للمستمع أو القارئ.

٦- لعل شعر ابن حزم الأندلسي يحتاج الى دراسة مستقلة لبيان رؤيته لعصره من جميع أوجهه الأدبية والاجتماعية والدينية والثقافية إذ لا يمكن لهذا البحث المتواضع تغطيتها بمجملها .

مصادر البحث

١- البداية والنهاية ، ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ) ، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر للطباعة ، د.ط ، ١٤١٨ه/ ١٩٩٧ .

٢- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٨ .

٣- تاريخ الأدب العربي ، د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، د.ط، ١٩٧٨ .

٤- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي (ت٤٨٨ هـ) ، تحقيق : بشار عواد معروف – محمد بشار عواد ، الدار المصرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٦ .

٥- ديوان ابن الرومي ، علي بن العباس بن جريح ابن الرومي(ت٢٨٣ هـ) ، تحقيق: احمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، ط ٣ ، ١٤٢٣-٢٠٠٢ .

٦- ديوان ابن المعتز ، عبد الله بن المعتز(ت٢٤٧) ، دار صادر ، د.ط ، ١٩٨٩ .

٧- ديوان ابن حزم ، ابن حزم ، جمع وتحقيق : صبحي رشاد عبد الكريم ، دار الصحابة للتراث ، ١٤١٠- ١٩٩٠ .

٨- ديوان ابن خفاجة الأندلسي ، ابي اسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي (ت٥٣٣ هـ)، دار العلم ، مصر ، د.ط . ١٨٦٩م .

٩- ديوان أبي تمام، شاهين عطية (ت٨٤٥ م)، المطبعة الأدبية ، بيروت ، د.ط ، ١٩٨٩ .

١٠- ديوان الأعشى ، ميمون بن قيس المعروف بأعشى قيس ، تحقيق : محمد إبراهيم الرضواني ، دار العلم ، د.ط ١٩٦١ .

١١- ديوان البحتري ، البحتري (ت٢٨٤ هـ) ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، مصر ، ط ٣ ، ١٩٨٩ .

١٢- ديوان الصنوبري ، احمد بن محمد بن الحسن الضبي (ت٣٣٤ هـ)، تحقيق : محمد نبيل ألطريفي ، دار صادر للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٩٩٨ .

١٣- ديوان امرؤ القيس ، امرؤ القيس (ت٥٤٠ م) ، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط ٤ ، ١٩٨٤.

١٤- ديوان اوس بن حجر ، اوس بن حجر (ت٦٢٠ م) ، تحقيق : محمد يوسف نجم ، دار بيروت ، د.ط ، ١٤٠٠ه – ١٩٨٠ .

١٥- ديوان ذي الرمة ، غيلان بن عقبة بن مسعود (ت١١٧ هـ) ، تحيق : أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٥ .

١٦- ديوان عبيد بن الأبرص ، عبيد بن الأبرص الاسدي ، تحقيق : اشرف احمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، ١٩٥٧.

١٧- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، ابن بسام (ت ٥٤٢هـ) ، تحقيق : احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ط ، ١٩٩٧ .

١٨- سير أعلام النبلاء ، الذهبي محمد بن احمد (ت٧٤٨هـ) ، تحقيق : د. بشار عواد معروف – شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط١١ ، د.ت .

١٩- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، أبي بكر محمد بن القاسم ، دار المعارف لنشر والتوزيع ، القاهرة ، د.ط ، ١٩٦٣ .

٢٠- شعر الطبيعة في الأدب العربي ، سيد نوفل ، القاهرة ، د.ط ، ١٩٤٥ .

٢١- طبقات الأمم ، أبو القاسم صاعد بن احمد بن صاعد الأندلسي(ت٤٦٢ هـ) ، دار الطليعة، بيروت ، ط١ ، ١٣٣٠ .

٢٢- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، لابن بشكوال (ت٥٧٨ هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١، ١٩٩٥ .

٢٣- الصنوبري شاعر الطبيعة ، عبد الرحمن عطية ، دار العربية ، ليبيا ، د.ط ، ١٩٨١.

٢٤- طبقات الحفاظ ، السيوطي جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣ .

٢٥- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١ هـ) ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، د.ط ، د.ت .

٢٦- طوق الحمام في الألف والآلاف ، ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) ، تحقيق : صلاح الدين القاسمي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، د.ط ، ١٩٨٥ .

٢٧- العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢٢ ، د.ت .

٢٨- قانون التأويل ، محمد بن عبد الله بن العربي المعافري(ت٥٤٣) ، شركة القبلة للثقافة الإسلامية ، مؤسسة علوم القران ، ط١ ، ١٩٦٨ .

٢٩- النجوم الزاهرة ، ابن تغرى بردى (ت٨٧٤ ه) ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٢ .

٣٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المقري احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١) ، تحقيق : احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د.ط ، ١٩٦٨ .

٣١- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ط ، ١٩٧٩ .

٣٢- مختار الشعر الجاهلي ، مصطفى السقا ، مكتبة البابي الحلبي ، مصر ، د.ط ، ١٩٤٨ .

٣٣- مصادر الشعر الجاهلي ، ناصر الدين الأسد ، دار الجيل للطبع والنشر ، بيروت ، د.ط ، ١٩٩٩ .

٣٤- الوصف في الشعر العربي ، عبد العظيم علي القناوي ، دار العلم ، د.ط ١٩٤٩ .

الدوريات

١- الأمير الأموي عبد الرحمن بن الحكم دراسة في شعره ونثره ، فوز سهيل نجم ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مج(٢٢) ، عدد(٢) .

٢- ابن حزم حياته وعصره ، محمد أبو زهرة (ت ٤٥٦ هـ)، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د.ط ، ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م .

هوامش البحث

١- مصادر الشعر الجاهلي وقيمته التاريخية ، ناصر الدين الأسد ،دار الجيل للطبع والنشر ، د.ط ، ١٩٩٩م : ١٥٢ .

٢- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ،أبي بكر محمد بن القاسم ، دار المعارف لنشر والتوزيع ، القاهرة ، د.ط ، ١٩٦٣: ٤٣ .

٣- الوصف في الشعر العربي ،عبد العظيم علي القناوي، دار العلم ، بيروت ، د.ط ، ١٩٤٩ ، ٥٤.

٤- ديوان امرؤ القيس ،(ت٥٤٠ ه) ،دار المعارف ، ط ٤ ، ١٩٨٤ ، ١٧٠.

٥- م، ن، ٦٧.

٦- تاريخ الأدب العربي ، د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت، د.ط ، ١٩٧٨ ،٦٥.

٧- ديوان اوس بن حجر ، (ت٦٢٠ هـ) ، تحقيق: محمد يوسف نجم ،دار بيروت، د.ط ، ١٤٠٠/ ١٩٨٠ ، ١٥ .

٨- ديوان الأعشى، ميمون بن قيس ،تحقيق: محمد إبراهيم ألرضواني دار العلم ، د.ط ،١٩٦١ ،١٥٠ .

٩- ديوان عبيد بن، الأبرص عبيد بن الأبرص ، تحقيق : حسين نصار ،دارالمعارف ،القاهرة ، ط١، ١٩٥٧ ، ٧٦ .

١٠- مختار الشعر الجاهلي ، مصطفى السقا ، مكتبة البابي الحلبي ، مصر ، د.ط ، ١٩٤٨،٧١ .

١١- ديوان ذي الرمة ،غيلان بن عقبه (ت١١٧هـ) ، دار الكتب العلمي، ط١، ١٩٩٥ ، ٩٨.

١٢- الوصف في الشعر العربي ، ٤٢-٤٣.

١٣- ديوان أبي تمام ،شاهين عطية(ت٨٤٥ هـ)،المطبعة الأدبية بيروت ، د.ط ، ١٩٨٩ ،٢٤٣.

١٤- ديوان البحتري ، البحتري (ت٢٨٤ هـ)،تحقيق : حسن كامل ،دار المعارف ، مصر ، ط ٣ ، ١٩٨٩ ، ٥٧ .

١٥- ديوان ابن الرومي ، علي بن العباس بن جريح ابن الرومي (ت٢٨٣ هـ)،تحقيق: احمد حسن بسج ،دار الكتب العلمية ،ط ٣ ، ١٤٢٣-٢٠٠٢ ، ٤١٢.

١٦- م.ن ،٨٩.

١٧- ديوان الصنوبري ،الصنوبري (ت ٣٣٤ هـ)،تحقيق: د. محمد نبيل الطريفي ، دار صادر ،بيروت ، ط١ ،١٩٩٨ ، ٨٧ .

١٨- م، ن ،٩٧.

١٩- ديوان ابن المعتز ، عبدالله بن المعتز (ت٢٤٧ هـ) ، دار صادر ،بيروت ، د.ط ، ١٩٨٩ ، ٢٤١ .

٢٠- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ،إحسان عباس ،دار الثقافة ، بيروت ، ط١، ١٩٧٨ ،١٠٦ .

٢١- م ،ن ،١٠٩.

٢٢- ديوان ابن خفاجه الأندلسي ، أبو إسحاق بن خفاجه الأندلسي (ت٥٣٣ هـ)، تحقيق: السيد مصطفى غازي ،دار العلم ، مصر ، د.ط ، ١٨٦٩ ، ١٢٧.

٢٣- الأمير الأموي عبد الرحمن بن حكم دراسة في شعره ونثره ، فوز سهيل نجم ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مج(٣٨) ، عدد(٢) ، ٤١٥.

٢٤- م ، ن، ٤٢٠ .

٢٥- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المقري احمد بن محمد التلمساني (ت١٦٣١ هـ)،تحقيق: احسان عباس ،دار صادر ،بيروت،د.ط ، ١٩٦٨ ، ٥٦٧ .

٢٦- سير أعلام النبلاء ، ١٨٤-٢١٣.

٢٧- طوق الحمامة في الألفة والآلاف ، ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦ هـ) ،تحقيق: صلاح الدين القاسمي ،الدار التونسية للنشر ، تونس ، د.ط ، ١٩٨٥ ، ٢٠ .

٢٨- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، لابن بشكوال (ت٥٧٨ هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، ط١، ١٩٩٥ ، ١٨٥ .

٢٩- طبقات الأمم ، صاعد الأندلسي (ت٤٦٢ هـ) ، دار الطليعة ، بيروت ، ط١ ،١٣٣٠ ، ٩٩ ـ ١٠٠ .

٣٠- سير أعلام النبلاء ، ١٨/ ١٨٥ .

٣١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام(ت ٥٤٢ هـ)، تحقيق : احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ط ، ١٩٩٧ ، ١٧٠ .

٣٢- سير أعلام النبلاء ، الذهبي محمد بن احمد (ت٧٤٨هـ) ، تحقيق : د. بشار عواد معروف – شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط١١ ، د.ت ، ١٨/ ١٩٩ .

٣٣- النجوم الزاهرة ، ابن تغرى بردى ت (٨٧٤ هـ) ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٩٢ ،٧٥ .

٣٤- سير اعلام النبلاء ، ١٨ / ٢٠١.

٣٥- م ، ن ، ١٨/ ٢٠٣ .

٣٦- سير اعلام النبلاء ، ١٨/ ٢٠٤ .

٣٧- قانون التأويل ، محمد بن عبدالله بن العربي المعافري (ت٥٤٣ هـ)، شركة القبلة للثقافة الإسلامية ، مؤسسة علوم القران، ط١ ، ١٩٦٨ ، ٢٤٣ .

٣٨- طبقات الحفاظ ، عبدا لرحمن بن أبي جلال الدين السيوطي (ت٩١١ هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣ ، ٤٥٦ .

٣٩- رواه أبو داود (رقم / ٤٢٩١) وصححه السخاوي في "المقاصد الحسنة" (١٤٩) ، والألباني في "السلسلة الصحيحة" (الرقم / ٥٩٩) .

٤٠- جذوة المقتبس ، محمد بن عبدالله ألحميدي (ت٤٨٨ هـ) ، الدار المصرية ، القاهرة ، ط١، ١٩٦٦ ، ٢٩٨ .

٤١- طبقات الأمم ، ٩٩-١٠٣ .

٤٢- م.ن ، ٩٩-١٠٣

٤٣- جذوة المقتبس ، ١/ ٢٩٩ .

٤٥- طوق الحمام ،٢٣٢-٢٣٣ .

٤٦- نفح الطيب ،٢، ٨٣.

٤٧- ديوان ابن حزم ،٩٣.

٤٨- ديوان ابن حزم ، ٦٤ .

٤٩- م ، ن ، ٦٥.

٥٠- ديوان ابن حزم ، ٦٥.

٥١- م ، ن ،٧٧.

٥٢- م ، ن ،٨٤.

٥٣- م ، ن ،٦٦.

٥٤- م ، ن ، ٨٤.

٥٥- ديوان ابن حزم ،٨٨.

٥٦- م ، ن ،٨٨.

٥٧- م ، ن ،٩٣ .

٥٨- م ، ن ،٦٦.

٥٩- م ، ن ،٨٩.

٦٠- ديوان ابن حزم ، ٨٢.

٦١- م ، ن،٩٣.

٦٢- م ، ن ،٩٤.

٦٣- م ، ن ،٥٦.